شرح كتاب الفصول في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم

للشيخة
أم عبد الله بنت الشيخ مقبل بن هادي الوادعي
حفظها الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (٨)

قَالَ الْحَافِظُ أَبُو الْفِدَاءِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ عُمَرَ بْنِ كَثِير رحمه الله:

فَصْلٌ

مَبْعَثُهُ ﷺ (١)

وَلَمَّا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى رَحْمَةَ العِبَادِ (٢)

---

(١) قال الحافظ في «فتح الباري» تبويب حديث(٣٨٥١): الْمَبْعَثُ مِنَ الْبَعْثِ، وَأَصْلُهُ الْإِثَارَةُ، وَيُطْلَقُ عَلَى التَّوْجِيهِ فِي أَمْرٍ مَا، رِسَالَةٍ أَوْ حَاجَةٍ، وَمِنْهُ: بَعَثْتُ الْبَعِيرَ، إِذَا أَثَرْتُهُ مِنْ مَكَانِهِ، وَبَعَثْتُ الْعَسْكَرَ إِذَا وَجَّهْتُهُمْ لِلْقِتَالِ، وَبَعَثْتُ النَّائِمَ مِنْ نَوْمِهِ إِذَا أَيْقَظْتُهُ. اهـ.

وقول الحافظ ابن حجر: (وَيُطْلَقُ عَلَى التَّوْجِيهِ فِي أَمْرٍ مَا) (ما) نكرة تامة، وهي صفة لأمر، ومنه المثال النحوي: لأمرٍ ما جُدع أنفه.

(٢) من رحمة الله بعباده أن أرسل إليهم هذا النبي الكريم محمد ﷺ، ورحمة الله واسعة، ولكن إرسال الرسل ولا سيما محمد من أعظم أنواع رحمته، قال تَعَالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[آل عمران:١٦٤].

أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان، وقد كانوا في جاهلية جهلاء، وفي شر وبلاء، كما ثبت في «صحيح مسلم» (٢٨٦٥) من حديث عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ رضي الله عنه، وفيه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ».

(فَمَقَتَهُمْ) أي: أبغضهم الله؛ لشدة فجورهم، وانتشار الشركيات فيهم، والفواحش، والقتل، والقتال، والظلم، والجهل المُطبِق، فأرسلَ الله ﷻ هذا النبي الكريم؛ رحمة للعباد، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾[الأنبياء: ١٠٧].

ونذكر كلامًا لشيخ الإسلام عن ضرورية إرسال الرسل وأن الحاجة إليهم فوق ما يخطر بالبال-وإن كان فيه طول ولكنه مهم-في «مجموع الفتاوى»(١٩/ ٩٩): وَالرِّسَالَةُ ضَرُورِيَّةٌ فِي إصْلَاحِ الْعَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، فَكَمَا أَنَّهُ لَا صَلَاحَ لَهُ فِي آخِرَتِهِ إلَّا بِاتِّبَاعِ الرِّسَالَةِ، فَكَذَلِكَ لَا صَلَاحَ لَهُ فِي مَعَاشِهِ وَدُنْيَاهُ إلَّا بِاتِّبَاعِ الرِّسَالَةِ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مُضْطَرٌّ إلَى الشَّرْعِ؛ فَإِنَّهُ بَيْنَ حَرَكَتَيْنِ: حَرَكَةٌ يَجْلِبُ بِهَا مَا يَنْفَعُهُ؛ وَحَرَكَةٌ يَدْفَعُ بِهَا مَا يَضُرُّهُ. وَالشَّرْعُ هُوَ النُّورُ الَّذِي يُبَيِّنُ مَا يَنْفَعُهُ وَمَا يَضُرُّهُ وَالشَّرْعُ نُورُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ وَعَدْلُهُ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَحِصْنُهُ الَّذِي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا. وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالشَّرْعِ التَّمْيِيزُ بَيْنَ الضَّارِّ وَالنَّافِعِ بِالْحِسِّ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَحْصُلُ لِلْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمِ؛ فَإِنَّ الْحِمَارَ وَالْجَمَلَ يُمَيِّزُ بِهِ بَيْنَ الشَّعِيرِ وَالتُّرَابِ، بَلْ التَّمْيِيزُ بَيْنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَضُرُّ فَاعِلَهَا فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ، كَنَفْعِ الْإِيمَانِ وَالتَّوْحِيدِ، وَالْعَدْلِ وَالْبِرِّ وَالتَّصَدُّقِ وَالْإِحْسَانِ، وَالْأَمَانَةِ وَالْعِفَّةِ، وَالشَّجَاعَةِ وَالْحِلْمِ وَالصَّبْرِ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنْ الْمُنْكَرِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ وَبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَالْإِحْسَانِ إلَى الْمَمَالِيكِ وَالْجَارِ، وَأَدَاءِ الْحُقُوقِ وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِ، وَالرِّضَا بِمَوَاقِعِ الْقَدَرِ بِهِ، وَالتَّسْلِيمِ

لِحُكْمِهِ وَالِانْقِيَادِ لِأَمْرِهِ، وَمُوَالَاةِ أَوْلِيَائِهِ وَمُعَادَاةِ أَعْدَائِهِ، وَخَشْيَتِهِ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَالتَّقْوَى إِلَيْهِ بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ وَاجْتِنَابِ مَحَارِمِهِ، وَاحْتِسَابِ الثَّوَابِ عِنْدَهُ، وَتَصْدِيقِهِ وَتَصْدِيقِ رُسُلِهِ فِي كُلِّ مَا أَخْبَرُوا بِهِ، وَطَاعَتِهِ فِي كُلِّ مَا أُمِرُوا بِهِ، مِمَّا هُوَ نَفْعٌ وَصَلَاحٌ لِلْعَبْدِ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ، وَفِي ضِدِّ ذَلِكَ شَقَاوَتُهُ وَمَضَرَّتُهُ فِي دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ. وَلَوْلَا الرِّسَالَةُ لَمْ يَهْتَدِ الْعَقْلُ إِلَى تَفَاصِيلِ النَّافِعِ وَالضَّارِّ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ، فَمِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَأَشْرَفِ مِنَّةٍ عَلَيْهِمْ: أَنْ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كُتُبَهُ، وَبَيَّنَ لَهُمُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ. وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانُوا بِمَنْزِلَةِ الْأَنْعَامِ وَالْبَهَائِمِ، بَلْ أَشَرَّ حَالًا مِنْهَا، فَمَنْ قَبِلَ رِسَالَةَ اللَّهِ وَاسْتَقَامَ عَلَيْهَا فَهُوَ مِنْ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ، وَمَنْ رَدَّهَا وَخَرَجَ عَنْهَا فَهُوَ مِنْ شَرِّ الْبَرِيَّةِ، وَأَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْكَلْبِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْحَيَوَانِ الْبَهِيمِ. فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِنَا، يَتْلُو عَلَيْنَا آيَاتِ اللَّهِ وَيُزَكِّينَا وَيُعَلِّمُنَا الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَإِنْ كُنَّا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. وَقَالَ أَهْلُ الْجَنَّةِ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ﴾[الأعراف: ٤٣]. وَالدُّنْيَا كُلُّهَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلَّا مَا أَشْرَقَتْ عَلَيْهِ شَمْسُ الرِّسَالَةِ، وَأُسِّسَ بُنْيَانُهُ عَلَيْهَا، وَلَا بَقَاءَ لِأَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا مَا دَامَتْ آثَارُ الرُّسُلِ مَوْجُودَةً فِيهِمْ، فَإِذَا دَرَسَتْ آثَارُ الرُّسُلِ مِنَ الْأَرْضِ وانمحت بِالْكُلِّيَّةِ خَرَّبَ اللَّهُ الْعَالَمَ الْعُلْوِيَّ وَالسُّفْلِيَّ وَأَقَامَ الْقِيَامَةَ. وَلَيْسَتْ حَاجَةُ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَى الرَّسُولِ كَحَاجَتِهِمْ إِلَى الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالرِّيَاحِ وَالْمَطَرِ وَلَا كَحَاجَةِ الْإِنْسَانِ إِلَى حَيَاتِهِ؛ وَلَا كَحَاجَةِ الْعَيْنِ إِلَى ضَوْئِهَا، وَالْجِسْمِ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ؛ بَلْ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ؛ وَأَشَدُّ حَاجَةً مِنْ كُلِّ مَا يُقَدَّرُ وَيَخْطُرُ

وَكَرَامَتَهُ بِإِرْسَالِهِ إِلَى العَالَمِينَ (٣)

بِالْبَالِ، فَالرُّسُلُ وَسَائِطُ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ خَلْقِهِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَهُمُ السُّفَرَاءُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ.

وكان خَاتَمُهُمْ وَسَيِّدُهُمْ وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى رَبِّهِ: مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ. اهـ. المراد.

فالحمد لله الذي هدانا للإسلام ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧]، نسأل الله أن يتوفانا مسلمين.

(٣) أي: أراد الله كرامة النبي ﷺ بالرسالة؛ فإن هذا اصطفاء واختيار لا ينزله الله إلا على من كان أهلًا لذلك، كما قال تَعَالَى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج].

قال شيخ الإسلام في «منهاج السنة»(٥/ ٤٣٧): وَالِاصْطِفَاءُ افْتِعَالٌ مِنَ التَّصْفِيَةِ، كَمَا أَنَّ الِاخْتِيَارَ افْتِعَالٌ مِنَ الْخِيرَةِ، فَيَخْتَارُ مَنْ يَكُونُ مُصْطَفًى. وَقَدْ قَالَ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ﴾ [سُورَةُ الْأَنْعَامِ: ١٢٤]، فَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ يَجْعَلُهُ رَسُولًا مِمَّنْ لَمْ يَجْعَلْهُ رَسُولًا، وَلَوْ كَانَ كُلُّ النَّاسِ يَصْلُحُ لِلرِّسَالَةِ لَامْتَنَعَ هَذَا، وَهُوَ عَالِمٌ بِتَعْيِينِ الرَّسُولِ، وَأَنَّهُ أَحَقُّ مِنْ غَيْرِهِ بِالرِّسَالَةِ، كَمَا دَلَّ الْقُرْآنُ عَلَى ذَلِكَ.

حَبَّبَ إِلَيْهِ الخَلَاءَ (٤)، فَكَانَ يَتَحَنَّثُ (٥) فِي غَارِ حِرَاءٍ (٦)

---

(٤) أي: الله ﷻ حَبَّب إليه الخلوة والانفراد عن الناس.

قال النووي رحمه الله في شرح هذا الحديث من «صحيح مسلم»: أَمَّا الْخَلَاءُ فَمَمْدُودٌ، وَهُوَ الْخَلْوَةُ، وَهِيَ شَأْنُ الصَّالِحِينَ وَعِبَادِ اللَّهِ الْعَارِفِينَ.

قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْخَطَّابِيُّ رحمه الله: حُبِّبَتِ الْعُزْلَةُ إِلَيْهِ ﷺ؛ لِأَنَّ مَعَهَا فَرَاغَ الْقَلْبِ، وَهِيَ مُعِينَةٌ عَلَى التَّفَكُّرِ، وَبِهَا يَنْقَطِعُ عَنْ مَأْلُوفَاتِ الْبَشَرِ، وَيَتَخَشَّعُ قَلْبُهُ، وَاللَّهُ أَعْلَم.

وقال ابن كثير في «البداية والنهاية»(٣/ ٥): وَإِنَّمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحِبُّ الْخَلَاءَ وَالِانْفِرَادَ عَنْ قَوْمِهِ؛ لِمَا يَرَاهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضَّلَالِ الْمُبِينِ، مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، وَالسُّجُودِ لِلْأَصْنَامِ. وَقَوِيَتْ مَحَبَّتُهُ لِلْخَلْوَةِ عِنْدَ مُقَارَبَةِ إِيحَاءِ اللَّهِ إِلَيْهِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ. اهـ.

هنا النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قبل نزول الوحي حُبب إليه الخلاء؛ فلهذا كان يذهب إلى الغار-وهو غار حراء-، ويتعبد لله ﷻ فيه.

والخلوة في العبادة لها فضيلتها كما قال النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ» ومنهم: «وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ» رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١) عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه. الخلوة في العبادة، الصلاة، عند تلاوة القرآن، وطلب العلم، هذا أبعد من الرياء، وعون على الخشوع، و جمع القلب؛ ولهذا الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ۝٦﴾ [المزمل: ٦]، ساعة هدوء الناس، ونوم الأطفال، فيتواطأ قلبه مع لسانه، ويجد ثمرة وبركة في جهده ووقته.

(٥) التحنث: التعبد.

كَمَا كَانَ يَصْنَعُ ذَلِكَ مُتَعَبِّدُو ذَلِكَ الزَّمَانِ(٧)، كَمَا قَالَ أَبُو طَالِبٍ فِي قَصِيدَتِهِ الْمَشْهُورَةِ «اللَّامِيَّة»:

وَالْغَارُ كما في «المصباح المنير»(٤٥٦): مَا يُنْحَتُ فِي الْجَبَلِ شِبْهَ الْمَغَارَةِ، فَإِذَا اتَّسَعَ قِيلَ: كَهْفٌ، وَالْجَمْعُ غِيرَانٌ، مِثْلُ نَارٍ وَنِيرَانٍ.

(٦)قِطعة من حديثٍ أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠) من طريق عُقَيْلٍ، عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، به مطولا.

وفيه: أن هذا الغار في حراء.

قال الفيُّومي في «المصباح المنير»(٤٥٦): وَالْغَارُ الَّذِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَتَعَبَّدُ فِيهِ فِي جَبَلِ حِرَاءٍ، وَالْغَارُ الَّذِي أَوَى إلَيْهِ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ فِي جَبَلِ ثَوْرٍ، وَهُوَ مُطِلٌّ عَلَى مَكَّةَ. اهـ.

وهذا هو المذكور في قوله تَعَالَى: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾[التوبة: ٤٠].

وجبل حراء كما في «اقتضاء الصراط المستقيم»(٢/٣٣٢): أطول جبل بمكة.

(٧) كذا اشتهر في كتب السيرة، قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ كما في «السيرة» لابن هشام(١/٢١٨): وَحَدَّثَنِي وَهْب بْنُ كَيْسان، مَوْلَى آلِ الزُّبَيْرِ، قَالَ: سمعتُ عبدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ وَهُوَ يَقُولُ لعُبَيد بْنِ عُمَيْر بْنِ قَتادة اللَّيْثِيِّ: حَدِّثْنَا يَا عُبَيْدُ، كَيْفَ كَانَ بدْءُ مَا ابتُدئ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ النُّبُوَّةِ، حِينَ جَاءَهُ جِبْرِيلُ عليه السلام؟ قَالَ: فَقَالَ عُبيد-وَأَنَا حَاضِرٌ-يُحَدِّثُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ، وَمَنْ عِنْدَهُ مِنَ النَّاسِ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُجَاوِرُ فِي حِراء مِنْ كُلِّ سَنَةٍ شَهْرًا، وَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا تحنَّث بِهِ قريش في الجاهلية.

وهذا إسناد حسن؛ من أجل ابن إسحاق، وهو مدلس، لكنه قد صرَّح بالتحديث.

وأما وهب بن كيسان القرشي مولى آل الزبير أبو نعيم المدني المعلم المكي. ترجمته في «تهذيب التهذيب»(١١/١٦٦)، وقد وثقه النسائي وابن معين وأحمد وغيرهم.

وذكره شيخ الإسلام في «اقتضاء الصراط المستقيم»(٢/٣٣٢)، وقال: كانت قريش تنتابه قبل الإسلام وتتعبد هناك، ثم ذكر بيت أبي طالب المذكور أعلاه.

وتعبُّد النبي ﷺ في غار حراء هل كان على الملة الحنيفية ملة أبينا إبراهيم؟

قال ابن كثير في «البداية والنهاية»(٣/٦): وَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي تَعَبُّدِهِ عليه السلام قَبْلَ الْبِعْثَةِ، هَلْ كَانَ عَلَى شَرْعٍ أَمْ لَا، وَمَا ذَلِكَ الشَّرْعُ؟

فَقِيلَ: شَرْعُ نُوحٍ، وَقِيلَ: شَرْعُ إِبْرَاهِيمَ. وَهُوَ الْأَشْبَهُ الْأَقْوَى. وَقِيلَ: مُوسَى، وَقِيلَ: عِيسَى، وَقِيلَ: كُلُّ مَا ثَبَتَ أَنَّهُ شَرْعٌ عِنْدَهُ اتَّبَعَهُ وَعَمِلَ بِهِ.

وقال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»(٤٩٥٣) عن تعبد النبي بغار حراء: وَهَذَا يَلْتَفِتُ إِلَى مَسْأَلَةٍ أُصُولِيَّةٍ، وَهُوَ أَنَّهُ ﷺ هَلْ كَانَ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ مُتَعَبِّدًا بِشَرِيعَةِ نَبِيٍّ قَبْلَهُ؟ قَالَ الْجُمْهُورُ: لَا؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ تَابِعًا لَاسْتُبْعِدَ أَنْ يَكُونَ مَتْبُوعًا، وَلِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لَنَقَلَ مَنْ كَانَ يُنْسَبُ إِلَيْهِ. وَقِيلَ: نَعَمْ، وَاخْتَارَهُ ابن الْحَاجِبِ. وَاخْتَلَفُوا فِي تَعْيِينِهِ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَقْوَالٍ:

أَحدهَا: آدم. حَكَاهُ ابن بُرْهَانٍ، الثَّانِي: نُوحٌ. حَكَاهُ الْآمِدِيُّ، الثَّالِثُ: إِبْرَاهِيمُ. ذَهَبَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ، وَاسْتَدَلُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣].

الرَّابِعُ: مُوسَى. الْخَامِسُ: عِيسَى. السَّادِسُ: بِكُلِّ شَيْءٍ بَلَغَهُ عَنْ شَرْعِ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَحُجَّتِهِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]. السَّابِعُ: الْوَقْفُ، وَاخْتَارَهُ الْآمِدِيُّ.

قال الحافظ: وَلَا يَخْفَى قُوَّةُ الثَّالِثِ، وَلَا سِيَّمَا مَعَ مَا نُقِلَ مِنْ مُلَازَمَتِهِ لِلْحَجِّ وَالطَّوَافِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، مِمَّا بَقِيَ عِنْدَهُمْ مِنْ شَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَهَذَا كُلُّهُ قَبْلَ النُّبُوَّةِ.

ونجد أن الذي قواه الحافظ ابن كثير وبعده الحافظ ابن حجر في تعبد النَّبِيّ ﷺ في غار حراء أنه كان على الملة الحنيفية الإبراهيمية.

وهنا تنبيه مهم: التعبد في غار حراء لم يفعله النبي ﷺ بعد البعثة، كما هو ظاهر حديث عائشة ما نصه: عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الخَلاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ-وَهُوَ التَّعَبُّدُ-اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ... الحديث أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

فدلَّ هذا أنه لا يُشرع تخصيص هذا الغار بعبادة فيه، فلا يجوز لأحد أن يذهب ويتعبد في ذلك الغار ويقول: أتأسى بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ؛ فإن هذا لم يفعله النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ بعد بعثته، وإنما كان يذهب إليه قبل البعثة.

قال شيخ الإسلام في «اقتضاء الصراط المستقيم»(٢/ ٣٣٣): فتحنثه وتعبده بغار حراء كان قبل المبعث، ثم إنه لما أكرمه الله بنبوته ورسالته، وفرض على الخلق الإيمان به وطاعته واتباعه، وأقام بمكة بضع عشرة سنة، هو ومن آمن به من المهاجرين الأولين، الذين هم أفضل الخلق، ولم يذهب هو ولا أحد من أصحابه إلى حراء.

وَثَوْرٍ[٨] وَمَنْ أَرْسَى ثَبِيرًا مَكَانَهُ... وَرَاقٍ لِيَرْقَى فِي حِرَاءٍ وَنَازِلِ[٩]

---

(٨) و(ثور، وثبير، وحراء) جبال من جبال مكة.

(ومَن أرسى) أي: ثبَّت الأرض بالجبال، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾[النازعات: ٣٢].

(وراقٍ) أي: صاعِد، فالرُّقِي الصعود.

(لِبِرِّ) البر: ضدُّ الإثم.

وقد ذكره ابن كثير هنا؛ ليستدل به أن هذا الغار كان معروفا عند العرب، وأنه كان يعمد بعضهم إليه؛ ليتعبَّد فيه.

(٩) ذكرها ابنُ إسحاق رحمه الله تعالى، فيما ذكره ابنُ هِشامٍ بطولها بدون إسناد في «السيرة» (١/ ٢٤٥).

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ عقِب القصيدة: هَذَا مَا صَحَّ لِي مِنْ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ، وَبَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالشِّعْرِ يُنْكِرُ أَكْثَرَهَا. اهـ.

أكثرها لم تأتِ بسند صحيح جاء قِطَعٌ منها ثابتة، مثل ما روى البخاري (١٠٠٩)عن عبد الله بن دينار، قال: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ يَتَمَثَّلُ بِشِعْرِ أَبِي طَالِبٍ:

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ... ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ

أما من حيث معنى هذه القصيدة فمعناها قوي، حتى إن الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية»(٣/ ٥٧) يقول: هذه قصيدة عظيمة بليغة جدًّا لا يستطيع يَقُولَهَا إِلَّا مَنْ نُسِبَتْ

إِلَيْهِ، وَهِيَ أَفْحَلُ مِنَ «الْمُعَلَّقَاتِ السَّبْعِ»، وَأَبْلَغُ فِي تَأْدِيَةِ الْمَعْنَى فيها جَمِيعًا، وَقَدْ أَوْرَدَهَا الْأُمَوِيُّ فِي «مَغَازِيهِ» مُطَوَّلَةً بزيادات أخر، والله أعلم.

وفي هذه القصيدة أن أبا طالب كان يعتقد الحق بقلبه، ولكنه لم يؤمن بذلك بلسانه فلم ينفعه، وقد تقدم ذلك.

فَفَجِأَهُ الحَقُّ (١٠) وَهُوَ بِغَارِ حِرَاءٍ فِي رَمَضَانَ (١١)، وَلَهُ مِنَ العُمُرِ أَرْبَعُونَ سَنَةً (١٢).

---

(١٠) قال ابن كثير رحمه الله في «البداية والنهاية» (٣/ ١٠): أي جَاءَ بَغْتَةً عَلَى غَيْرِ مَوْعِدٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص:٨٦] الْآيَة.

(١١) هذا شهر المبعث الشهر الذي بعث فيه النبي ﷺ، هو شهر رمضان. كما قال تَعَالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وهناك حديث عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام فِي أَوَّلِ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ لِسِتٍّ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ، وَالْإِنْجِيلُ لِثَلَاثَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الْفُرْقَانُ لِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ». رواه أحمد(٢٨/ ١٩١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات»(٤٩٤) وغيرهما من طريق عِمْرَان- وهو ابن داور-أَبِي الْعَوَّامِ، عَنْ قَتَادَةَ، عَنْ أَبِي الْمَلِيحِ، عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ، به.

وعمران بن داور مختلف فيه، والراجح ضعفه.

ولكن له شاهد عن ابن عباس أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق»(٦/ ٢٠٢) من طريق علي -هو ابن أبي طلحة- عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ أنزلت الصحف على إبراهيم في ليلتين من شهر رمضان، وأنزل الزبور على داود في ست من رمضان، وأنزلت التوراة على موسى لثمان عشرة من رمضان، وأنزل القرآن على محمد ﷺ لأربع وعشرين من رمضان.

وعلي بن أبي طلحة لم يلقَ ابن عباس، ولكنه يتقوى به حديثُ واثلة.

وقوله: «وَأُنْزِلَ الْفُرْقَانُ لِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ» أي: ليلة ٢٥؛ لأنها التي أقبلت بعد أن خلت ليلة ٢٤.

والحديث ذكره الشيخ الألباني في «الصحيحة»(١٥٧٥).

وقال ابن القيم في «زاد المعاد»(١/ ٧٦): وَاخْتُلِفَ فِي شَهْرِ الْمَبْعَثِ. فَقِيلَ: لِثَمَانٍ مَضَيْنَ مِنْ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ مِنْ عَامِ الْفِيلِ، هَذَا قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ، وَقِيلَ: بَلْ كَانَ ذَلِكَ فِي رَمَضَانَ، وَاحْتَجَّ هَؤُلَاءِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥] [الْبَقَرَةِ: ١٨٥]. قَالُوا: أَوَّلُ مَا أَكْرَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِنُبُوَّتِهِ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنَ، وَإِلَى هَذَا ذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ يحيى الصرصري حَيْثُ يَقُولُ فِي «نُونِيَّتِهِ»:

وَأَتَتْ عَلَيْهِ أَرْبَعُونَ فَأَشْرَقَتْ... شَمْسُ النُّبُوَةِ مِنْهُ فِي رَمَضَانِ

وَالْأَوَّلُونَ قَالُوا: إِنَّمَا كَانَ إِنْزَالُ الْقُرْآنِ فِي رَمَضَانَ جُمْلَةً وَاحِدَةً فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ، ثُمَّ أُنْزِلَ مُنَجَّمًا بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ فِي ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً.

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ، أَيْ: فِي شَأْنِهِ وَتَعْظِيمِهِ وَفَرْضِ صَوْمِهِ.

وَقِيلَ: كَانَ ابْتِدَاءُ الْمَبْعَثِ فِي شَهْرِ رَجَبٍ. اهـ. وقد عرفت الذي يؤيده الدليل.

وكان مبعثه يوم الاثنين، كما في «صحيح مسلم» (١١٦٢) عَنْ أَبِي قَتَادَةَ الْأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الاثْنَيْنِ، قَالَ: ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ وَيَوْمٌ بُعِثْتُ أَوْ أُنْزِلَ عَلَيَّ.

قال ابن القيم في «زاد المعاد» (١/ ٧٦): وَلَا خِلَافَ أَنَّ مَبْعَثَهُ ﷺ كَانَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ.

(١٢) كان سن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لما نزل عليه الوحي أربعين سنة.

قال الشوكاني في «فتح القدير»-تفسير سورة الأحقاف-: قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: لَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ نَبِيًّا قَطُّ إِلَّا بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

وهذا هو سنُّ الأشد عند بعض العلماء، وقد حكى الأقوالَ الشوكاني في «فتح القدير»-تفسير سورة الأنعام-، وانتقد هذا، وقال: اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي الْأَشُدِّ. فَقَالَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ: بُلُوغُهُ وَإِيناسُ رُشْدِهِ.

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: خَمْسٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: هُوَ الْبُلُوغُ.

وَقِيلَ: إِنَّهُ انتهاء الكهولة، ومنه قول سحيم الرّياحي:

أخو خمسين مجتمع أشدّي ... ونجّدني مداورة الشّؤون

وَالْأَوْلَى فِي تَحْقِيقِ بُلُوغِ الْأَشُدِّ: أَنَّهُ الْبُلُوغُ إِلَى سِنِّ التَّكْلِيفِ مَعَ إِينَاسِ الرُّشْدِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ فِي تَصَرُّفَاتِهِ بِمَالِهِ سَالِكًا مَسْلَكَ الْعُقَلَاءِ، لَا مَسْلَكَ أَهْلِ السَّفَهِ وَالتَّبْذِيرِ، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ النِّسَاءِ: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النساء:٦]، فَجَعَلَ بُلُوغَ النِّكَاحِ، وَهُوَ بُلُوغُ سِنِّ التَّكْلِيفِ مُقَيَّدًا بِإِينَاسِ الرُّشْدِ.

فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ لَهُ: اقْرَأْ، قَالَ: لَسْتُ بِقَارِئٍ، فَغَتَّهُ(١٣) حَتَّى بَلَغَ مِنْهُ الجَهْدَ (١٤)، ثُمَّ أَرْسَلَهُ فَقَالَ لَهُ: اقْرَأْ، قَالَ: لَسْتُ بِقَارِئٍ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق:١-٥].

---

(١٣) قال الخليل بن أحمد رحمه الله تعالى في كتاب (العين): الغَتُّ: كالغَطِّ في الماء.

وروايةُ «الصحيحين»: «فغطَّني».

قال النووي في «شرح صحيح مسلم»: أَمَّا «غَطَّنِي» فَبِالْغَيْنِ الْمُعْجَمَةِ وَالطَّاءِ الْمُهْمَلَةِ، وَمَعْنَاهُ: عَصَرَنِي وَضَمَّنِي، يُقَالُ: غَطَّهُ وَغَتَّهُ وَضَغَطَهُ وَعَصَرَهُ وَخَنَقَهُ وَغَمَزَهُ، كُلُّهُ بِمَعْنًى وَاحِدٍ. اهـ.

فيكون المعنى أنه حبس نفَس النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

(١٤) الجَهد: المشقة.

وفي قوله سُبحانه: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ [العلق: ٣]، دليلٌ على أن الذي يعطِي العلم، ويعين على حفظه هو الله عز وجل، فيقرأ ويتعلم ويسأل ربه، والله سبحانه الكريم الأكرم يعطيه من واسعِ فضله العظيم.

فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ تَرْجُفُ (١٥) بَوَادِرُهُ (١٦)، فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا، وَقَالَ: «قَدْ خَشِيتُ بِهَا عَلَى عَقْلِي»، فَثَبَّتَتْهُ وَقَالَتْ: أَبْشِرْ كَلَّا وَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ (١٧)، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الدَّهْرِ (١٨).

فِي أَوْصَافٍ أُخَرَ جَمِيلَةٍ عَدَّدَتْهَا مِنْ أَخْلَاقِهِ ﷺ، وَتَصْدِيقًا مِنْهَا لَهُ، وَتَثْبِيتًا، وَإِعَانَةً عَلَى الحَقِّ (١٩).

---

(١٥) (ترجُف) أي: تضطرب.

(١٦) قال النووي في شرح هذا الحديث: قال أبو عُبيدة وسائرُ أهل اللغة والغريب: البادرة هي اللحمة بين العنق والمنكب، تضطرب عن فزع الإنسان.

(١٧) الثِّقل.

(١٨) شدائده.

(١٩) يستفاد منه: التزكية لمن يستحقه.

وموقف أمِّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها في هذه القصة يدل على قوة إيمانها وذكائها ورُجحان عقلها؛ حيث قالت: (كلا والله لا يخزيك الله أبدًا..)، وهذا من مواقف المرأة الصالحة، الوقوف مع الزوج وطَمْأَنَتُه، وتثبيته وإعانته.

وفي قصة خديجة رضي الله عنها أيضًا: تسليةُ مَن نزل به أمرٌ والتخفيف عنه.

وقد استدلَّت خديجةُ رضي الله عنها بهذه الصفات الكريمة-التي هي من أشرف الأوصاف-أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لا خوفَ عليه؛ لأن هذه صفات عالية وأخلاق زكية تعودُ على صاحبها بالخير والسلامة، وأن الله لن يخزيه ولن يضيعه ولن يخذله.

فَهِيَ أَوَّلُ صِدِّيقٍ لَهُ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا وَأَكْرَمَهَا(٢٠).

ثُمَّ مَكَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ لَا يَرَى شَيْئًا، وَفَتَرَ عَنْهُ الوَحْيُ(٢١)، فَاغْتَمَّ لِذَلِكَ، وَذَهَبَ مِرَارًا؛ لِيَتَرَدَّى مِنْ رُؤُوسِ الجِبَالِ(٢٢)؛ وَذَلِكَ مِنْ شَوْقِهِ إِلَى مَا رَأَى أَوَّلَ مَرَّةٍ، مِنْ حَلَاوَةِ مَا شَاهَدَهُ مِنْ وَحْيِ اللهِ إِلَيْهِ.

---

(٢٠) أول من أسلم مطلقًا أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، وهذا من مناقبها.

(٢١) والحكمة من فتور الوحي ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في «فتح الباري»(٣) ما يلي: وَفُتُورُ الْوَحْيِ: عِبَارَةٌ عَنْ تَأَخُّرِهِ مُدَّةً مِنَ الزَّمَانِ؛ وَكَانَ ذَلِكَ لِيَذْهَبَ مَا كَانَ ﷺ وَجَدَهُ مِنَ الرَّوْعِ، وَلِيَحْصُلَ لَهُ التَّشَوُّفُ إِلَى الْعَوْدِ.

(٢٢) هذه اللفظة هي من بلاغات الزهري رحمه الله تعالى، وهي عند البخاري برقم (٦٩٨٢) قال: (وَفَتَرَ الوَحْيُ فَتْرَةً حَتَّى حَزِنَ النَّبِيُّ ﷺ -فِيمَا بَلَغَنَا-، حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا؛ كَيْ يَتَرَدَّى مِنْ رُءُوسِ شَوَاهِقِ الجِبَالِ، فَكُلَّمَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ؛ لِكَيْ يُلْقِيَ مِنْهُ نَفْسَهُ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ حَقًّا، فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ جَأْشُهُ، وَتَقِرُّ نَفْسُهُ، فَيَرْجِعُ، فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ فَتْرَةُ الوَحْيِ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ، فَإِذَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ).

قال الحافظ رحمه الله تعالى في «فتح الباري»: إن القائل: (فيما بلغنا) هو الزهري.

قال الشيخ الألباني رحمه الله تعالى في «السلسلة الضعيفة» (١٠/٤٥٣): يعني: أنه ليس بموصول.

فَقِيلَ: إِنَّ فَتْرَةَ الوَحْيِ كَانَتْ قَرِيبًا مِنْ سَنَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ(٢٣).

ثُمَّ تَبَدَّى لَهُ المَلَكُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ عَلَى كُرْسِيٍّ، وَثَبَّتَهُ، وَبَشَّرَهُ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللهِ حَقًّا، فَلَمَّا رَآهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَرِقَ مِنْهُ وَذَهَبَ إِلَى خَدِيجَةَ، وَقَالَ: «زَمِّلُونِي، دَثِّرُونِي، فَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾[المدثر:١-٤]».

وَكَانَتِ الحَالُ الأُولَى حَالَ نُبُوَّةٍ وَإِيحَاءٍ(٢٤).

ثُمَّ أَمَرَهُ اللهُ فِي هَذِهِ الآيَةِ أَنْ يُنْذِرَ قَوْمَهُ وَيَدْعُوَهُمْ إِلَى اللهِ(٢٥).

وحكم الشيخ الألباني رحمه الله على المتن بالنكارة، وأنه قد جاء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في الحديث المتفق عليه «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا».

(٢٣) مدة فترة الوحي -أي: انقطاعه-، ينقل هنا الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى قولًا: (كانت قريبًا من سنتين أو أكثر).

(٢٤) الحالة الأولي أي: السابقة في نزول صدرِ ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق:١].

(٢٥) وبهذا يجمع بين الدليلين، عائشة -رضي الله عنها- تقول: أول ما نزل ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾[العلق:١]، الخمس الآيات الأولى من سورة العلق.

وفي حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أنه الخمس الآيات من سورة المدثر، كما روى البخاري (٤٩٥٤) عن جَابِرَ بْن عَبْدِاللهِ الْأَنْصَارِيَّ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ -وَهُوَ يُحَدِّثُ

فَشَمَّرَ ﷺ عَنْ سَاقِ التَّكْلِيفِ، وَقَامَ فِي طَاعَةِ اللهِ أَتَمَّ قِيَامٍ، يَدْعُو إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ: الكَبِيرَ، وَالصَّغِيرَ، وَالحُرَّ وَالعَبْدَ، وَالرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ، وَالأَسْوَدَ وَالأَحْمَرَ، فَاسْتَجَابَ لَهُ عِبَادُ اللهِ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ.

وَكَانَ حَائِزَ سَبْقِهِمْ(٢٦) أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه، عَبْدُ اللهِ بْنُ عُثْمَانَ التَّيْمِيُّ وَآزَرَهُ فِي دِينِ اللهِ، وَدَعَا مَعَهُ إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ، فَاسْتَجَابَ لِأَبِي بَكْرٍ: عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ(٢٧)، وَطَلْحَةُ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ.

عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ-: «بَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَفَرِقْتُ مِنْهُ فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَدَثَّرُوهُ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: ١-٥]».

فيجمع بينهما: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ نبئ بسورة العلق، وأرسل بالمدثر.

(٢٦) أي: الذي حازَ السبْقَ.

(٢٧) في أول البعثة اهتدى على يد أبي بكر رضي الله عنه عثمان بن عفان، وطلحة-وهو ابن عبيدالله-، وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم، كلهم من العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم.

وآخرُ العشرة المبشرين بالجنة موتًا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، كما أن آخرَ أزواجِ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ موتًا أم سلمة رضي الله عنها، وآخر الصحابة موتًا على الإطلاق أبو الطفيل عامر بن واثلة رضي الله عنه

وَأَمَّا عَلِيٌّ فَأَسْلَمَ صَغِيرًا ابْنَ ثَمَانِي سِنِينَ.

وَقِيلَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ.

وَقِيلَ: كَانَ إِسْلَامُهُ قَبْلَ إِسْلَامِ أَبِي بَكْرٍ.

وَقِيلَ: لَا.

ومسألة: أوَّل مَن آمن من صحابة رسول الله ﷺ، النص جاء أن أول من أسلم خديجة رضي الله عنها؛ فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لما جاءه الملك وأنزل عليه القرآن رجع يرجف فؤاده، ثم آمنت بذلك، وثبَّتت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، فهي أول مَن آمَن مطلقًا، وقد نصَّ على ذلك ابن كثير كما تقدَّم عنه حيث قال: (فهي أول صدِّيق له رضي الله تعالى عنها وأكرمها).

وقال رحمه الله في «مختَصر علوم الحديث»: وادعى الثعلبي المفسر على ذلك الإجماع قال: وإنما الخلاف فيمن أسلم بعدها. اهـ.

ويذكر أهلُ المصطلح تفصيلًا: أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر، ومن النساء خديجة، ومن الصبيان علي بن أبي طالب، ومن الموالي زيد بن حارثة، ومن الأرقاء بلال بن رباح رضي الله عنهم جميعًا.

وَعَلَى كُلِّ حَالٍ، فَإِسْلَامُهُ لَيْسَ كَإِسْلَامِ الصِّدِّيقِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ فِي كَفَالَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ (٢٨)، أَخَذَهُ مِنْ عَمِّهِ؛ إِعَانَةً لَهُ عَلَى سَنَةِ مَحْلٍ (٢٩).

وَكَذَلِكَ أَسْلَمَتْ خَدِيجَةُ، وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ.

---

(٢٨) يعني: كان تابعًا للنبي ﷺ وكفالته وكَنَفِهِ، وقد روى البخاري ومسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ».

بخلاف أبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنه كان كبيرًا وكان عن اقتناع، أما الصغير فإنه يكون تابعًا.

ولهذا ابن عمر(كان له حِينَ الْهِجْرَةِ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً) كما في «فتح الباري»(٣٩١٢)، وما ألحقه أبوه بمن هاجر بالغًا في العطاء، كما ثبت عَنْ نَافِعٍ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ فَرَضَ لِلْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ أَرْبَعَةَ آلَافٍ فِي أَرْبَعَةٍ، وَفَرَضَ لِابْنِ عُمَرَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَخَمْسَ مِائَةٍ، فَقِيلَ لَهُ: هُوَ مِنَ المُهَاجِرِينَ، فَلِمَ نَقَصْتَهُ مِنْ أَرْبَعَةِ آلَافٍ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا هَاجَرَ بِهِ أَبَوَاهُ، يَقُولُ: لَيْسَ هُوَ كَمَنْ هَاجَرَ بِنَفْسِهِ. رواه البخاري(٣٩١٢).

(٢٩) (سنة محل) أي عام جَدْبٍ.

قال الجوهري في «الصحاح»: المَحْلُ: الجَدبُ، وهو انقطاع المطر ويبس الأرض من الكلاء.

وَأَسْلَمَ القِسُّ وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ فَصَدَّقَ بِمَا وَجَدَ مِنْ وَحْيِ اللهِ، وَتَمَنَّى أَنْ لَوْ كَانَ جَذَعًا(٣٠)، وَذَلِكَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ الوَحْيُ(٣١).

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَآهُ فِي المَنَامِ فِي هَيْئَةٍ حَسَنَةٍ (٣٢).

---

(٣٠) قال الخطابي في «أعلام الحديث» (١/ ١٣٠): معناه: ليتني بقيت حيًّا إلى وقت مخرجك، وأيام دعوتك، وكنت فيها شابًّا، بمنزلة الجذع، من الخيول، لقول الآخر:

يا ليتني فيها جذع... أخب فيها وأضع

(٣١) كما في حديث أول نزول الوحي، وتقدم تخريجه.

(٣٢) أخرجه الترمذي (٢٢٨٨) من طريق عُثْمَان بْن عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ وَرَقَةَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: إِنَّهُ كَانَ صَدَّقَكَ وَلَكِنَّهُ مَاتَ قَبْلَ أَنْ تَظْهَرَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُرِيتُهُ فِي المَنَامِ وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ بَيَاضٌ، وَلَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَكَانَ عَلَيْهِ لِبَاسٌ غَيْرُ ذَلِكَ».

قال الترمذي عقِبَهُ: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وَعُثْمَانُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ لَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ الحَدِيثِ بِالقَوِيِّ.

وينظر ما بعده.

وَجَاءَ فِي حَدِيثٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «رَأَيْتُ القِسَّ[٣٣] عَلَيْهِ ثِيَابٌ بِيضٌ»[٣٤].

---

(٣٣) في «الصحاح»: (الْقِسُّ): رَئِيسٌ مِنْ رُؤَسَاءِ النَّصَارَى فِي الدِّينِ وَالْعِلْمِ، وَكَذَا (الْقِسِّيسُ) بِكَسْرِ الْقَافِ.

(٣٤) أخرجه أحمد في «مسنده»(٤/ ٤٣٠) من طريق ابْن لَهِيعَةَ، حَدَّثَنَا أَبُو الْأَسْوَدِ، عَنْ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ خَدِيجَةَ سَأَلَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ، فَقَالَ: «قَدْ رَأَيْتُهُ فِي الْمَنَامِ، فَرَأَيْتُ عَلَيْهِ ثِيَابَ بَيَاضٍ، فَأَحْسِبُهُ لَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ بَيَاضٌ». وابن لهيعة ضعيف.

وأخرجه أبو يعلى (٤/ ٤١) عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ سُئِلَ عَنْ وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ، قَالَ: «أَبْصَرْتُهُ فِي بُطْنَانِ الْجَنَّةِ عَلَيْهِ سُنْدُسٌ»، وفيه مجالد بن سعيد ضعيف.

وأخرجه البيهقي في «دلائل النبوة»(٢/ ١٥٨) عَنْ أَبِي مَيْسَرَةَ عَمْرِو بْنِ شُرَحْبِيلَ «أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وآله وَسَلَّمَ قَالَ لِخَدِيجَةَ: «إِنِّي إِذَا خَلَوتُ وَحْدِي سَمِعْتُ نِدَاءً..»، وذكره لكن قال: «لَقَدْ رَأَيْتُ الْقِسَّ فِي الْجَنَّةِ عَلَيْهِ ثِيَابُ الْحَرِيرِ؛ لِأَنَّهُ آمَنَ بِي وَصَدَّقَنِي -يَعْنِي وَرَقَةَ». ثم قال عقبه: فَهَذَا مُنْقَطِعٌ. أي: مرسل.

وأعله كذلك بالانقطاع السخاوي في «الأجوبة المرضية»(٣/ ٨٩٨)، وقال: هو منقطع، ولكن يعتضد بمرسل جيد عن عروة بن الزبير لفظه: كان بلال رضي الله عنه لجارية من بني جمح، وكانوا يعذبونه برمضاء مكة، يلصقون ظهره بالرمضاء لكي يشرك، فيقول: أحد أحد، فيمر به ورقة وهو على تلك الحال فيقول: أحد أحد، يا بلال! والله لئن قتلتموه لأتخذنه حنانًا.

وَفِي «الصَّحِيحَيْنِ» أَنَّهُ قَالَ: «هَذَا النَّامُوسُ[٣٥] الَّذِي جَاءَ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ». لَمَّا ذَهَبَتْ خَدِيجَةُ بِهِ إِلَيْهِ، فَقَصَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَا رَأَى مِنْ أَمْرِ جِبْرِيلَ عليه السلام.

وهو كما قال شيخنا-الحافظ ابن حجر-: يدل على أن ورقة عاش إلى أن دعا النبي ﷺ إلى الإسلام حتى أسلم بلال.

وحينئذ فقوله فيما تقدم: (ثم لم ينشب)أي: قبل أن يشتهر الإسلام ويؤمر النبي ﷺ بالجهاد انتهى.

وأخرجه الحاكم في «المستدرك»(٢/٦٦) عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا وَرَقَةَ فَإِنِّي رَأَيْتُ لَهُ جَنَّةً أَوْ جَنَّتَيْنِ»، وسنده صحيح، رجاله كلهم ثقات. وذكره الشيخ الألباني رحمه الله في «الصحيحة»(٤٠٥).

فائدة: ورقة بنُ نوفل صحابي ابن عم خديجة رضي الله عنها، وهو:

ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قُصي بن كلاب بن مرة، وخديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قُصي بن كلاب بن مرة، ويلتقيان مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في قُصي، وهما أقرب إلى قُصي بواحد؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ هو: محمد بنُ عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قُصي بن كلاب..

(٣٥) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في «فتح الباري» شرح هذا الحديث: وَالْمُرَادُ بِالنَّامُوسِ هُنَا جِبْرِيلُ عليه السلام.

قال: وَقَوْلُهُ: (عَلَى مُوسَى) وَلَمْ يَقُلْ: عَلَى عِيسَى، مَعَ كَوْنِهِ نَصْرَانِيًّا؛ لِأَنَّ كِتَابَ مُوسَى عليه السلام مُشْتَمِلٌ عَلَى أَكْثَرِ الْأَحْكَامِ، بِخِلَافِ عِيسَى. وَكَذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ، أَوْ لِأَنَّ مُوسَى بُعِثَ بِالنِّقْمَةِ

وَدَخَلَ مَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ عَلَى نُورٍ وَبَصِيرَةٍ وَمُعَايَنَةٍ، فَأَخَذَهُمْ سُفَهَاءُ مَكَّةَ بِالأَذَى وَالعُقُوبَةِ (٣٦).

عَلَى فِرْعَوْنَ وَمَنْ مَعَهُ، بِخِلَافِ عِيسَى. كَذَلِكَ وَقَعَتِ النِّقْمَةُ عَلَى يَدِ النَّبِيِّ ﷺ بِفِرْعَوْنِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَهُوَ أَبُو جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ وَمَنْ مَعَهُ بِبَدْرٍ. أَوْ قَالَهُ تَحْقِيقًا لِلرِّسَالَةِ؛ لِأَنَّ نُزُولَ جِبْرِيلَ عَلَى مُوسَى مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ، بِخِلَافِ عِيسَى فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْيَهُودِ يُنْكِرُونَ نُبُوَّتَهُ.

وقال الحافظ ابنُ كثير في «البداية والنهاية» (٣/ ١٣): وَلَمْ يَذْكُرْ -أي ورقة- عِيسَى وَإِنْ كَانَ مُتَأَخِّرًا بَعْدَ مُوسَى؛ لِأَنَّهُ كَانَتْ شَرِيعَتُهُ مُتَمِّمَةً وَمُكَمِّلَةً لِشَرِيعَةِ مُوسَى عليهما السلام، وَنَسَخَتْ بَعْضَهَا عَلَى الصَّحِيحِ مِنْ قَوْلِ الْعُلَمَاءِ. كَمَا قَالَ: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠].

قال: وَقَوْلُ وَرَقَةَ هَذَا كَمَا قَالَتِ الْجِنُّ: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الأحقاف: ٣٠]. اهـ.

وهذه فائدةٌ في بيان ذكرِ ورقة ومسلمي الجن لرسالة موسى دون عيسى عليهما السلام.

(٣٦) هذا فيه بيان من دخل في الإسلام بعد أولئك الذين تقدم ذكرهم، وهم من شرح الله صدرهم للإسلام الذي هو أعظم منَّة، وأنهم ابتُلوا بسفهاء مكة بالأذى والعذاب، وأنه لم يصل شيء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ من الأذى؛ بسبب عمه أبي طالب فقد كان ينصره، ويحوطه كما تقدم في دروسٍ سابقة، ويدفع عنه الأذى، ولمكانة أبي طالب بين قريش ما كانوا يتجرؤون على أذاه.

وَصَانَ اللهُ رَسُولَهُ وَحَمَاهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، لِأَنَّهُ كَانَ شَرِيفًا مُطَاعًا فِيهِمْ، نَبِيلًا بَيْنَهُمْ، لَا يَتَجَاسَرُونَ عَلَى مُفَاجَأَتِهِ بِشَيْءٍ فِي أَمْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ؛ لِمَا يَعْلَمُونَ مِنْ مَحَبَّتِهِ لَهُ (٣٧).

وَكَانَ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ بَقَاؤُهُ عَلَى دِينِهِمْ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنَ المَصْلَحَةِ(٣٨).

---

(٣٧) أخرج ابنُ ماجه (١٥٠)عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ سَبْعَةٌ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعَمَّارٌ، وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ، وَصُهَيْبٌ، وَبِلَالٌ، وَالْمِقْدَادُ، فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِقَوْمِهِ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ، وَأَلْبَسُوهُمْ أَدْرَاعَ الْحَدِيدِ، وَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ، فَمَا مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وَاتَاهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا، إِلَّا بِلَالًا، فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللَّهِ، وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ، فَأَخَذُوهُ فَأَعْطَوْهُ الْوِلْدَانَ، فَجَعَلُوا يَطُوفُونَ بِهِ فِي شِعَابِ مَكَّةَ، وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ.

والحديث حسن؛ من أجل عاصم بنِ أبي النجود، وقد حسَّنه والدي رحمه الله في «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» رقم(٨٤٧).

فكانوا لا يتجرؤون على أذى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ والاعتداء عليه؛ لمكانة أبي طالب في نفوسهم.

(٣٨)أشار رحمه الله بهذا إلى الحكمة في بقاء أبي طالب على الكفر؛ لمصلحة الإسلام؛ فإن هذا يصدهم عن أذى النبي ﷺ.

وَهَذَا رَسُولُ اللهِ يَدْعُو إِلَى اللهِ لَيْلًا وَنَهَارًا سِرًّا وَجِهَارًا، لَا يَصُدُّهُ عَنْ ذَلِكَ صَادٌّ، وَلَا يَرُدُّهُ عَنْهُ رَادٌّ، وَلَا يَأْخُذُهُ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ(٣٩).

---

(٣٩) بسبب حماية عمه أبي طالب له ونصرته له، وهذا من دفاع الله عن نبيه وحِفظه له، فهو الذي قيَّض عمَّه لمحبته ونصرته.

انتهينا من هذا الفصل: مبعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، واستفدنا:

بيان حال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لمَّا فَجِأَهُ الوحي.

أن شهر المبعث هو شهر رمضان على قول، والأكثرون على خلافه، وكان في غار حراء، وهو ابن أربعين سنة.

بيان أول ما نزل من القر آن.

جملةٌ من الصحابة لهم السبْق في الإسلام: خديجة، أبوبكر، علي، طلحة، سعد بنُ أبي وقاص، ورقة بن نوفل رضي الله عنهم جميعًا، هؤلاء لهم السبق في الإسلام.

أول من أسلم من الصحابة.